أمتلئ إذ خَرِبَت

لما تجبرت صور في القديم على أورشليم وأذلتها بسماح من الله لتوبة أولاده، تكلم الله مع حزقيال النبي من جهتها قائلاً: "يا ابن آدم من أجل أن صور قالت على أورشليم هه قد انكسرت مصاريع الشعوب. قد تحولت إليَّ. **أمتلئ إذ خربت**. لذلك هكذا قال السيد الرب هأنذا عليكِ يا صور" (حز٢٦: ٢-٣). والحقيقة أن منطق "أمتلئ إذ خربت" هو منطق شيطاني شرير صار منهج حياة للكثيرين ليس فقط على مستوى الشعوب، ولكن أيضاً على مستوى الأفراد في حياتهم اليومية وعلى مستوى الجماعات في علاقتها ببعضها البعض.

هذا المنطق المريض يجعل صاحبه يستمد شعوره بالأمان عندما ينحط الآخر ويضعف. إنه لا يشعر بأنه على ما يرام إلا عندما يتأكد أن الآخر ليس على ما يرام. هو إحساس كاذب بزهو الامتلاء مستمد من مذلة خواء الآخر، ومكسب وهمي قائم على خسائر الآخرين. وعكس تلك العبارة هو صحيح أيضاً لكل من يتخذها منهج حياة حيث يصير شعاره: **"أمتلئ إذ خربت، وأخرب إذ امتلأت"**. وكأن الحياة ميزان لا ترتفع إحدى كفتيه إلا إذا انخفضت كفته الأخرى.

هذا المنطق هو منطق المضطهد العاتي، والظالم المتجبر. هو منطق كل دولة تقوم على أنقاض دولة أخرى، وكل شعب يستمد رخاءه من خراب شعب آخر، وكل غني يزيد غناه بفقر الآخرين، وكل رجل يستمد رجولته من تحقير زوجته، وكل زميل يبني نجاحه على فشل زميله، وكل أب يشعر بسلطانه من خلال قهره لابنه، وكل فريسي يبني فخره على مذلة عشار.

إنه هوى رديء يصيب الإنسان النفساني، أما الروحاني فله منهج المعمدان القائل: "ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص" (يو٣: ٣٠). امتلاء الروحاني هو حالة امتلاء حقيقية مستمدة من الروح القدس، أما النفساني فامتلاؤه هو امتلاء نسبي مبني على مقارنة ذاته بآخرين. عدو الخير هو وحده الملقب بالمخرب، وهو لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك لأن مملكته قائمة على الخراب وطعامه من هلاك الآخرين. وكل من يظن أنه يزداد بنقصان أخيه وينقص بازدياده هو من الشرير، وهو في الحقيقة قد وزن بموازين الروح القدس ووجد ناقصاً. إنه يظن أنه غني وقد استغنى ولا حاجة له إلى شيء، لكنه لا يعلم أنه شقي وبائس وفقير وأعمى وعريان.

فيا روح الله القدوس ليتك تعلمنا من أي روح نحن. ليتك إذ تفحص طرقنا وتوجهاتنا تنقيها لنا، وتعيد ضبط إيقاعها على إيقاع وقوانين المحبة فيصير منهجنا: أمتلئ إذ يمتلئ أخي، وأضعف إذ يضعف، وأعثر إذ يعثر، وأقوم إذ يقوم.